حسن حسني عبد الوهاب في (ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية)

.....

في بداية هذا العام غاب عالم من أعلام التراث العربي الإسلامي وفقد الصف اللغوي الأدبي رجلاً كان له القدح المعلى والمشاركة الكبيرة في عدد من ميادين الفكر والإنتاج. إنه العالم البحاثة التونسي الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب غفر الله وجزاء عن العربية والإسلام خير الجزاء.

كان رحمه الله من أكثر العلماء العرب التونسيين تتبعاً لمصادر التراث العربي الإسلامي. كما كان يملك مكتبة غنية من المخطوطات غير المنشورة بعد حوت كل فن من فنون الثقافة الإسلامية. وقد انتخب عضواً في المجتمع اللغوي في القاهرة تقديراً لخدماته وتنويها بعظيم إسهامه في الأبحاث اللغوية وإحياء التراث العربي الإسلامي.

وقد شارك رحمه في تأليف الرسائل والكتب الكبيرة فسجل فيها خلاصة آرائه كما بسط في الكتب فنوناً من الفكر تراءت له خلال مطالعاته الكثيرة.

وقد حصل على تقدير رئيس الدولة التونسية قبيل وفاته عند بداية عامنا هذا. ولعل آخر ما كتبه كان الرسالة التي وجّهها إلى السيد الرئيس بورقيبة من على صفحات مجلة الفكر معرباً فيها عن شكره وتقديره.

والمرحوم حسن حسني عبد الوهاب حرى بدراسة واسعة تستغرق أكثر من مقالة واحدة. وإذا كنا قد قدمنا كتاب الشهر بمثل هذه المقدمة السريعة فلأن الكتاب الذي اخترناه في هذه المرة هو من وضعه وتأليفه وجمع ما جمع فيه شخصياً تحت عنوان: "ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية"..

الكتاب مؤلف من مجلدين اثنين:

في المجلد الأول محاولة لعرض المعالم الأساسية للشخصية الحضارية في أفريقية التونسية. وقد كانت المحاولة جادة شاملة تناول فيها صاحبها عدداً من الموضوعات الهامة ابتداء من الإشاعة الأولى للحضور العربي الإسلامي يوم جاء القائد عقبة بن نافع وأسس مدينة القيروان لتكون بمثابة معسكر إسلامي أمامي حتى العهود الأخيرة.

في هذا الشريط الطويل من الأحداث والوقائع والممتد عبر ثلاثة عشر قرناً يتبين لنا أنّ المؤلف قد تعرض لعالم كبير غني الجوانب متعدد الألوان والنشاط فيه القادة حملة الرسالة والسياسيون المغامرون وفيه الرجال الإعماريون

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

الذين شيدوا المدن وأقاموا الرباطات والمسالح وبنوا المستشفيات والمدارس وفيه الشعراء وعلماء اللغة والأدب والأطباء والفلكيون والمهندسون وعلماء الرياضة والفقهاء والخطباء وعلماء الكلام وزعماء الفرق الإسلامية التي شاركت في تغيير مصائر المنطقة وبلغ من تأثيرها أنها اجتازت مياه المتوسط فبلغت شبه الجزيرة الأندلسية أو ذهبت شرقاً إلى مصر وبقية البلدان العربية.

وجملة القول أنّ الحضارة العربية بأفريقية التونسية قد لعبت دوراً هاماً في صنع التاريخ العربي بصورة عامة أجاد المؤلف في تعيين وقائعها الرئيسية وفي تسليط الأضواء على معاهدها ذات المعالم التاريخية الصارخة.

حدثنا عن تأسيس مدينة القيروان وهي أقدم مدينة عربية إسلامية في أفريقيا وكشف لنا عن الدور الحقيقي الذي قامت به هذه المدينة وهو دور لم يقتصر على الأغراض العسكرية كما ظن البعض بل انتشر على ميادين هامة أخرى كان فيها العلم ولا يزال ذا حظ غير قليل.

بدا بالطبع بقصة بناء المدينة وكيف أنّ مركزها النهائي قد تم اختياره بعد سلسلة من المحاولات وكيف تم توسعها من بعد وخططت فيها مصانع الماء أي "الصهاريج" والأسواق.

ثم انتقل إلى دور الأغالبة المبكر في سياسة المنطقة وتنمية قدراتها ورعاية المعاهد العلمية فيها ثم انتشر فوق هذه المعاهد فحدثنا مطولاً عن كل من جامع عقبة وجامل الزيتونة وعدد كبير غيرهما من أماكن العبادة والدرس في كل من المدن التالية: القيروان – رقادة – المهدية – تونس – سوسة.. ولم ينس بصورة خاصة بين الحكمة العظيم الذي بناه وأنفق على علمائه وتلاميذه وجلب له المترجمين من الخارج واستقدم له العلماء من المشرق الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني.

ويستمر المؤلف بعد ذلك في حديث شيق متين الأسلوب قوي الديباجة رشيق العبارة عن قصة اللحن والموسيقى والغناء والشعر واجتهد في التأريخ للغناء الإفريقي ابتداء من الحداء الذي جاء به الجندي العربي المسلم في البداية حتى ظهور الموشحات في عصر متأخر وما رافق هذه الأغاني من تطورات هامة في عالم اللحن ولم ينس الإشارة الإضافية إلى حادث مجيء زرياب المغني العباسي الذي حمل معه إلى أفريقيا أولاً ثم إلى الأندلس أسلوبه الجديد في التنغيم وطرائق العيش المترف والعادات الاجتماعية الراقية التي كانت شائعة في مجتمع العباسيين في بغداد.

أما قصة الأطباء والعلماء فهي قصة حافلة بالمعجب المدهش من الأخبار. لقد حدثنا عن بني الجزار وهم أسرة طارت لها في الطب وعلوم الفلك والرياضيات شهرة لا تضارعها شهرة أخرى. ولم ينس العلماء والأطباء التالية أسماؤهم بالإضافة إلى عشرات غيرهم في كل فن من فنون المعرفة.

الوزير ابن الصائغ – إسحاق بن عمران – إسحاق الاسرائيلي، زياد بن خلفون، ابن ظفر، أبو اليسر الشيباني، البريدي، أبو سعيد الصقلي، أبو بكر القمودي، الطلاء المنجم ابن القيار، بكر بن حماد، ابن خنيس اليوناني، سعيد بن الحداد، عبد الله بن طالب، محمد بن عبدون وغيرهم.

دمنة سوسة:

الدمنة في لغة الأفارقة التونسيين أيام الأغالبة هي المستشفى، والدمنة هي أسم الأرض التي رفعت فوق أبنية أول مستشفى في مدينة القيروان، ثم تعددت الدمنات فأسّست في عدد من المدن التونسية ومن أشهرها دمنات تونس وصفاقس وسوسة، واصطلح الأفارقة على إطلاق اسم دمنة على المستشفى بدلاً من الاسم التقليدي الذي هو البيمارستان أو المارستان.. وقد تعرف الدمنة باسم "حارة المرضى"..

والملاحظ أنّ كل الدمنات التي بنيت من بعد كانت على صورة دمنة القيروان. وقد كتب صاحب كتاب "ورقات" صفحات كثيرة وصف فهيأ نظام العمل في الدمنة وعيّن أقسامها وتوزيع العزف فيها وعين أمكنة المعالجة والمعاينة، وصنف أنواع المعاينات بحيث يخيل للقارىء أنه لم يكن فرق في بناء المستشفيات القديمة من حيث التخطيط العام والتوزيع الفني لأقسامها المختلفة من بناء المستشفيات الحديثة. ولعل جناح الناقهين أن يكون ظاهرة لافتة للنظر في دمنات العصور التونسية القديمة.

وقد كنا جديرين بتقديم صورة كاملة لطبيعة العمل وأقسام الأجنحة في تلك الأبنية الصحية لولا أنّ في هذه المقالة تقتصر على تقديم لمحات سريعة قصيرة عن الكتاب.

ولم ينس المؤلف الحديث عن المراحل التي مرت بها حرفة الطبابة، فقد ذكر في ص 272 من المجلد الأول من سماهم "فقهاء البدن" وهم كما يقول "أناس من المنتسبين إلى علوم الدين ومن رجال الجيش يتعاطون شيئاً من التطبيب بما اضطلعوه به من التجربة وأخذوه بالتقليد الموروث".. من بين هؤلاء الفقهاء: أبو الأسود موسى القطان ثم دحمان بن معافي ونصر بن فتح وساهم ممن وردت أسماؤهم في تراجم ابن ناجي وأبي العرب والمالكي والدباغ وغيرهم من كتاب تاريخ الرجال.

ويمضي المؤلف بعد ذلك فيحدثنا في شيء من التفصيل عن الدمنة "المستشفى" فيقول "ومما تجمع من الاطلاعات والبحث يتبين أنّ الدمنة كانت بناية في شكل مربع الأضلاع أو مربع مستطيل، يدخل إليها من باب واحد كبير يفتح على سقيفة طويلة (دهليز) معقود وسقفها على قوس (أزج) مرتفع ويحف بجانبي السقفية غرفتان صغيرتان أو أكثر يسكنها حارس أو حراس – الدمنة وعلى طول السقيفة يميناً وشمالاً مصطبتان قصيرتان ملتصقتان بالجار الأصلي. يجلس عليهما العواد عند زيارتهم للمرضى، وفي آخر السقيفة باب ثان أصغر من باب المفتح يفضي إلى صحن متسع غير مسقف، ويحيط بجوانب الصحن الثلاثة أو الأربعة أروقة

"مجنبات" معقودة السقوف ومن ورائها عدة حجرات صغيرة بسيطة معدة لإيواء المرضى. وفي وسط الرواق المواجه للمدخل مكان مسجد صغير لإقامة الصلوات للمقيمين بالدمنة.. "ومن جهة أحد الأروقة يوجد باب مستقل يدخل منه إلى دار فسيحة تحتوي على حجرات لا ندري عددها، تشبه لا محالة الحجرات المتقدم ذكرها وهذه الدار تسمى دار "الجذماء" لا يقيم بها إلا من كان مصاباً بداء الجذام..

يضاف إلى ما سبق حمام مستقل لأهل الدمنة لتطهير أبدانهم ثم عيادتان وصيدليتان، عيادة وصيدلية للداخل ومثلها للمرضى الخارجين.

ولو شئنا المضي مع المؤلف لاحتجنا إلى تسويد الكثير من الصفحات في استيعابنا لجوانب العمل والنشاط في الدمنة وللمناسبات الاجتماعية ومصادر التمويل والتموين التي تعتمد عليها هذه المؤسسة من أجل استمرارها. ولكننا نقتصر على ما ألمحنا إليه من هذا الموضوع ليعود الراغب في التوسع إلى النصوص الأصيلة للكتاب.

ولعل من حق المعالم ذات الطابع الحضاري الخاص في أفريقية التونسية علينا أن نسلط الضوء على الرباط ودوره في حماية الذمام وتنشئة الأجيال الجديدة وإعدادها لمواجهة كل عدوان خارجي.

وللرباط كما يقول المرحوم حسن حسني عبد الوهاب أهمية خاصة في تاريخ أفريقيا كلها، لقد كان في حقيقته مؤسسة دينية عسكرية اقتصادية تعليمية في الوقت نفسه كانت الشخصية الأفريقية في يقظتها وتأهبها ووعيها بمسؤولياتها الدينية والوطنية والاجتماعية متمثلة تمام التمثل في الرباط.

والرباط هو الحصن الذي يبنى على الحدود الخارجية للبلاد ولا سيما عند الشواطىء البحرية التي كانت هدفاً للغزاة من الفرنجة فيه تبنى الغرب لسكنى الجنود وجناح خاص لخيلهم ومثله لأسلحتهم بالإضافة إلى مسجد يؤدون فيه الصلاة وفناء كبير لإجراء التدريبات العسكرية ومن ورائه عدد من البساتين والحقول التي يعمل فيها الجند والمتطوعة لتوفير الغذاء الذي يحتاج إليه هذا الحصن. يضاف إلى ذلك كله تدريس منظم لرجال الحصن يتناول شؤون دينهم ودنياهم.. ولو عدنا إلى الوصف التفصيلي الذي سجله المؤلف لرباط مدينة سوسة لأدركنا أهمية الدور الذي كانت تقوم به الرباطات في تقوية العزائم وحماية التراب الوطني ولا ننسى أنّ الرجال الذين يلتحقون بمثل هذه الحصون هم من المتطوعة الذين يندفعون للقيام بمهمة الدفاع عن الدين والوطن بتأثير من إيمانهم واعتقادهم منهم أنهم يقومون بعمل تعبدي خالص.

وإذن فهم لم يكونوا من الجنود المرتزقين ولم يكونوا يحترفون الجندية بل يقومون بواجباتهم تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى وسعياً إلى رضاه ورغبة في الدخول إلى جنته.

الزحفة الهلالية:

ولم ينسَ المؤلف الحادث الضخم الكبير الذي هز أفريقيا العربية وزلزلها من كل أقطارها وفتح أبوابها لاستقبال مليون من المهاجرين العرب الآتين من أقصى المشرق العربي بين رجال ونساء وأطفال هذا الحادث هو "الزحفة الهلالية"..

وخلاصة أنّ المعز بن باديس الصنهاجي الذي كان يعتبر ممثلاً رسمياً لدولة الفاطميين في القاهرة قد قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأعلن استقلال بلده أفريقية التونسية ففكرت الدولة الفاطمية في الانتقام منه بوسيلة لم تكلفها خسائر كبيرة ولا كثير عناء وذلك أنه كان يوجد بأرض مصر قبائل عديدة من الأعراب ينتسبون إلى بني سليم وغيرهم يقيمون جبراً في أرض الصعيد ما بين البحر الأحمر والنيل، وكان وطنهم هناك الفاطميون قديماً وذلك بعد أنّ كثر عبثهم في بلاد الحجاز فأقاموا مدة طويلة في الصعيد وقد عادوا إلى الفساد والتخريب وتفاقم تضرر سكان مصر من عبثهم وقطعهم الطريق فاغتنم الملك الفاطمي – وهو المستنصر بالله – فرصة عقوق المعز بن باديس وانسلاخه عن سلطانه فرخص للأعراب المستقرين بأرضه الدخول إلى المغرب وأباح لهم اجتياز النيل والسير إلى أفريقية وتملك أرضها من يد الصنهاجيين وسرعان ما تسربوا زرافات وأفواجاً إلى أرض برقة ثم إلى طرابلس واستحوذوا عليها ثم طرقوا مدينة قابس وامتلكوها ومنها انسابوا كالسيل العرم على سهول البلاد التونسية وقهروا أهلها وعبثاً حاول المعز إيقاف هذا التيار الجارف فالتقى بجيوشه بجموعهم فأوقعوا به هزيمة نكراء في مكان (حيدران) ما بين قابس وصفاقس سنة 439 هـ (1047 م) وعاد المعز مغلولاً في شرذمة قليلة من جنده إلى القيروان التي لم تكن لتمنعه من شر الهاجمين فاضطر إلى الالتجاء أخيراً إلى المهدية لحصانة أسوارها ومتانة قلاعها سنة 449 هـ (1057 م) واتخذها قاعدة لملكه وملك ابنائه وحفيدته ...

والمتفق عليه أنّ هذه الزحفة الخطيرة قد أحدثت انقلاباً هائلاً في تاريخ البلاد وحققت من حيث لم يكن يريد الفاطميون خطوة واسعة نحو الترعيب الشامل لتلك البلاد الواسعة وزودتها بعناصر بشرية فتية وكان الثمن الذي دفعته البلاد موجة واسعة من التخريب في السنوات الأولى من موجات الغزو هذه.

ومهما قلنا في كتاب "ورقات" الذي عرف القارىء به بأنّ صورته الحقيقية لا تبدو إلا لمن يقرأه قراءة مجودة متدبرة.

يبقى أن نشير إلى النصوص الكثيرة التي ذيل بها المؤلف الفصول النهائية المجلد الثاني للكتاب وهي مجموعة من "المواعد والنوادر والملح التونسية " كما جاء في عنوان الصفحة الأولى من هذه الفصول. وقد أراد المؤلف من جمع هذه النصوص أن يعطي صورة عن الآداب الافريقية التونسية تصلح لأن تكون مادة للدرس والتدبر والتعرف إلى بطانة الفن التونسي في فترة طويلة من تاريخ الحضارة العربية والخلاصة أنّ كتاب (ورقات) الذي نقدّمه في مقالتنا اليوم مرجع جدير باهتمام المتأدب والطالب والعالم.